تومر فرسيكو*

حول التجربة اليهودية الأخيرة للتغلب على عملية العلمنة: صعود وسقوط "غوش ايمونيم"!

يرمز انتخاب نفتالي بينيت رئيسا للحزب القومي الديني "المفدال" (حاليا "البيت اليهودي")، أكثر من أي شيء آخر، إلى نهاية الحلم أو الرؤية "الكوكيّة"، وهي القوة الأيديولوجية المحركة لـ "غوش إيمونيم"، التي بدأت بمؤلفات وجهود الحاخام أبراهام إسحق هكوهن كوك. وقد تحولت هذه الرؤية، من تبلور تيار[1] في عهد الحاخام كوك حتى أُفولها وانهيارها، الذي سنتطرق له لاحقا، لتغدو بالغة الأهمية من نواحٍ عدة. لم يكن ذلك فقط لأن هذه الرؤية أنجبت إحدى أكبر الحركات المسيانية وأكثرها أهمية في اليهودية المعاصرة، ولأنه كان لها تأثير هائل على دولة إسرائيل وعلى مواطنيها والسكان الفلسطينيين في الضفة الغربية، وإنما لأن "الكوكيّة" وتجسيدها الاجتماعي المتمثل في حركة "غوش إيمونيم"، كانا بمثابة المحاولة الثيولوجية اليهودية الأخيرة للتغلب بصورة حاسمة على عملية العلمنة والتحول التي تمر بها التقاليد اليهودية في إطار هذه العملية ذاتها.

مُنيت هذه المحاولة بالفشل، كما هو معروف، وسوف أحاول في هذا المقال إيضاح لماذا وكيف حصل ذلك.

كُرس جُل تفكير الحاخام كوك (١٨٦٥ – ١٩٣٥) لرؤيته المسيانية، التي ترى في الحركة الصهيونية وهجرة اليهود في مطلع القرن العشرين إلى البقعة الجغرافية التي أُخرجوا منها قبل ذلك بنحو ألفي عام، إشارتين جليتين على الخلاص القريب المنتظر، والذي ستنشأ في إطاره مملكة يهودية سيادية في "أرض إسرائيل". وقد تمثّل التحدي الذي واجهه الحاخام كوك في شرح وإيضاح تقدم عملية الخلاص بالذات على أيدي يهودٍ ليسوا من المحافظين على

* محاضر جامعي متخصص بدراسة الأديان عامة والدين اليهودي على وجه الخصوص، وناشط اجتماعي من أجل حرية الأديان.

خلافا للفرضية الشائعة فإن عملية العلمنة لا تشمل في المقام الأول فقدان الإيمان والتخلي عن الطقوس الدينية. وتقف في مركز عملية العلمنة إعادة تقسيم الحيز العام، والمفاضلة بين الأبعاد المختلفة للنشاط الإنساني. وفي الوقت الذي هيمنت فيه المؤسسة الدينية، حتى العصر الحديث، على أبعادٍ وجوانب واسعة في الحياة الإنسانية (التعليم، الصحة، السياسة، العلم، الاخلاق وما إلى ذلك) فقد صودرت هذه المجالات في العصر الحديث، بداية في أوروبا، من هذه المؤسسة (الدينية) ووضعت تحت سيطرة ومسؤولية أجهزة خاصة تُعنى، كل على طريقتها، بتشغيل وإدارة تلك المجالات.

الفروض الدينية، بل وأحيانا مناهضين للتقاليد اليهودية بصورة سافرة. في هذا السياق، طرح النظرية الثيولوجية الخلاصية، التي ترى في حنكة ودهاء الحكمة الإلهية قوة فاعلة تساهم في دفع وخدمة غايات الله بشكل خفي، وذلك عن طريق أفعال لا تعتبر في جانبها المكشوف شرعية في نظر المحافظين على التقاليد. وحيث أن الخلاص يقتضي جمع الشتات وإقامة مملكة يهودية مستقلة في "أرض إسرائيل"، وبما أن المتدينين الحريديم المحافظين على التقاليد، ينتظرون بسلبية قدوم المسيح وليسوا مستعدين للعمل من أجل دفع هذا الموضوع قدما، فقد رأى الحاخام كوك أن الله ألقى المهمة على عاتق "أبناء السفهاء الرياديين" حسب تعبيره،[٢] أي على عاتق الصهيونيين العلمانيين، الذين سيعملون من أجل تحقيق هذه المهمة.

ووفقا للديالكتيك التاريخي الذي رآه الحاخام كوك في مخيلته، فإن "أبناء السفهاء" سيعودون، بعد إقامة الدولة

اليهودية وسط اقتحام الجدران والأسوار، إلى التقاليد الدينية اليهودية، ويتمسكون مجددا بالحلف الوثيق بين الله وبين الشعب اليهودي. عندئذٍ سيكتمل الخروج التآمري ضد مبادئ وأسس الدين في توليفة تجسد رؤية الخلاص بأكملها، وذلك من خلال إنشاء دولة تمثل تعبيرا كاملا للمبدأ (النموذج) المسياني اليهودي. وبعبارة أخرى فإن الصهيونيين العلمانيين سوف يتوبون إلى الله، بعد إنجاز مهمتهم التاريخية كعاصين ومتمردين "نافعين"، كما أن الدولة التي ستقام ستعمل كدولة ثيوقراطية كاملة يتزعمها ملك – مسيح.

لعل من الجدير بنا في هذا السياق أن نفهم، بأن الحاخام كوك لم يُعِد تفسير العلمانيين فحسب، وإنما العلمانية ذاتها أيضا. وكي ندرك إلى أي حد كانت رؤية الحاخام كوك رؤية

ابراهام اسحق كوك: "التوليفة" المبكرة مع الصهيونية.

ثورية، علينا أن نأخذ في الحسبان تطور وتنامي عملية العلمنة والمنطق الداخلي الذي تطرحه هذه العملية. إن فهم الادعاء القائم في أساس رؤية الحاخام كوك من شأنه أن يتيح لنا أيضا فهم ماهية فشل هذه الرؤية والرؤى الصهيونية الدينية التي أخذت تحل مكانها حاليا.

لقد ردت اليهودية، التي كانت منتشرة قبل الحرب العالمية الثانية في أوروبا بشكل أساسي (حوالي ٩٣٪ من اليهود كانوا يعيشون في ذلك الوقت في بلدان مسيحية، غير إسلامية)، على عملية العلمنة بأشكال مختلفة وأفرزت حركات ووجهات نظر ورؤى متضادة: في أعقاب عملية التقسيم الأوروبية هذه، كان هناك من رأى في اليهودية ديانة فقط، فيما كان هناك ثمة من سعى لتحويل اليهودية إلى قومية فقط. ففي الوقت الذي رأت فيه الأرثوذكسية الحديثة أو المعاصرة، واليهودية الإصلاحية والمحافظة، في اليهودية ديانة، فقد سعت الصهيونية العلمانية لتحويلها (أي الديانة اليهودية)، إلى قومية.

"الكوكية" كنقيض للعلمانية

خلافا للفرضية الشائعة فإن عملية العلمنة لا تشمل في المقام الأول فقدان الإيمان والتخلي عن الطقوس الدينية. وتقف في مركز عملية العلمنة إعادة تقسيم الحيز العام، والمفاضلة بين الأبعاد المختلفة للنشاط الإنساني. وفي الوقت الذي هيمنت فيه المؤسسة الدينية، حتى العصر الحديث، على أبعادٍ وجوانب واسعة في الحياة الإنسانية (التعليم، الصحة، السياسة، العلم، الاخلاق وما إلى ذلك) فقد صودرت هذه المجالات في العصر الحديث، بداية في أوروبا، من هذه المؤسسة (الدينية) ووضعت تحت سيطرة ومسؤولية أجهزة خاصة تُعنى، كل على طريقتها، بتشغيل وإدارة تلك المجالات.

ليس هذا وحسب، بل إن الدين ذاته تحول إلى مجال محدد ومقيد في حياتنا. فيمكن لنا أن ننتمي إلى قومية معينة، أو إلى مجموعة إثنية ما، والعمل في هذه المهنة أو تلك، وأن نكون من هواة الركض أو الشطرنج، ومتدينين أو غير متدينين في ذات الوقت. لقد تحول الدين، من كونه عنصرا أساسيا للهوية، ورؤية أو فلسفة أساسية للإنسان يغدو دونها تائها، فلسفة لا يتوانى عن التضحية بنفسه في سبيلها، إلى نموذج موازٍ لنماذج كثيرة أخرى.

إن التمييز بين مجال "ديني" وبين مجال غير ديني، يعد أمرا بدهيا، ولكن هذا التمييز غير قائم في عالم معظم التقاليد والأعراف الدينية، من الناحية العملية. فعلى سبيل المثال، لا تميّز الديانتان اليهودية والإسلامية بين مجال يخضع بصورة جلية لسيطرة الدين، على اختلاف مؤسساته ومبادئه وأسسه، وبين مجالات أخرى غير مرتبطة بالدين. وتشكل هذه المؤسسات والمبادئ في هاتين الديانتين أطراً دينية تسعى إلى وضع وإدراج سائر مجالات الحياة تحت سيطرتها، إبتداء من السياسة، مرورا بالزراعة وانتهاءً ببرامج التلفزيون.

في المقابل فان التمييز بين مختلف المجالات موجود وقائم بشكل جلي في الديانة المسيحية. فقد تضمنت أقوال المسيح وهو يُعلِّم تلاميذه: "أوفوا إذن ما لقيصر لقيصر، وما لله لله" (إنجيل متى الأصحاح ٢٢، آية ٢١) فصلا واضحا بين المضمار الديني والمضمار المدني أو الإجتماعي، وقد رافق هذا الفصل العالم الغربي في تطوره، حين شكل التوتر بين السلطة الدينية (البابا) والعلمانية (الملوك والقياصرة المختلفين في أوروبا) في غير مرة بؤرة صراع ومجابهة.

لقد قامت عملية العلمنة على أرضية هذا التمييز. فإبتداء من القرن السابع عشر، وجنبا إلى جنب مع توطد البروتستانتية، تعاظمت وتنامت عملية شهدت تقلّص المجال الديني في نطاقها، وذلك إنطلاقا من غاية تسعى إلى حصر هذا المجال داخل الفرد ذاته. ويوصف المجال العام برمته على أنه "علماني"، بمعنى خالٍ من الدين. فضلا عن ذلك فإن تبلور الدين كشأن خاص وداخلي للفرد جاء في مقابل وبموازاة تحديد تخوم الحيز العلماني كشأن علني للجمهور. من هنا فإن الدولة الديمقراطية الحديثة، تنمو وتتطور كجزء من عملية العلمنة، وتُعَرَّف من خلال وضعها كمقابل ومكمل للتعريف الحديث للدين. وعليه فان الحيز العام يغدو مجردا من الدين وخاضعا لمشيئة وقرار المواطنين، وذلك على أساس إعتبارات أيديولوجية وبراغماتية وبناءً على قرار الأغلبية. من هنا أيضا فإن مركز الحياة الدينية يقتصر على الحيز الشخصي، الخاص، كما أن الدين يخضع بصورة مطلقة لحسم وقرار الفرد، بناء على اعتباراته الشخصية. ولا يجوز للدولة التدخل في قناعة ومعتقد الفرد، كما لا يجوز للفرد محاولة فرض عقيدته وتقاليده الدينية على الآخرين.

كما هو معروف فان هذه الرؤية غريبة في جوهرها على التقاليد الدينية اليهودية والإسلامية، هاتان الديانتان اللتان لا تحصران المجال الديني في نطاق الفرد، وتريان بالتالي في الحيز العام، الـ res publica، جزءاً لا يتجزأ من الحياة الدينية. كذلك فإن الرؤية التي تعتبر فيها الديانة الأصلية ديانة طوعية، ليست رؤية يهودية أو إسلامية مقبولة.

كان ثمة الحاخام كوك أتباع وتلاميذ، غير أن عددهم كان قليلا جدا. وعلى قدر الادعاء الذي طرحه – على سبيل المثال في تسمية المدرسة الدينية التي أسسها في القدس "اليشيفاه المركزية العالمية" فقد تقلص أيضا تأثيره الفعلي في سني حياته. غير أن نظريته انتظرت كقنبلة هادئة أو صامتة آخذة في النضوج، إلى أن تنفجر في اللحظة المناسبة.

إن عملية المفاضلة هذه بين "الديني" و "العلماني"، بين الخاص والعام، والتي لا تعدو كونها، بالنسبة للحضارة المسيحية، على اختلاف التحديات التي تستدعيها، إحدى النتائج الممكنة لمفاهيمها الثيولوجية، تعتبر عملية صعبة وعسيرة للغاية بالنسبة للديانتين اليهودية والإسلامية. ولعله يمكن لنا أن نرى بوضوح مجمل ردود فعل العالم الإسلامي إزاء هذا التحدي في الوقت الراهن.

هنا أود أن أكتب وأتحدث حول ردود الفعل اليهودية، وفي شكل خاص، كما أسلفت، حول ردة الفعل "الكوكيّة".

لقد ردت اليهودية، التي كانت منتشرة قبل الحرب العالمية الثانية في أوروبا بشكل أساسي (حوالي ٩٣٪ من اليهود كانوا يعيشون في ذلك الوقت في بلدان مسيحية، غير إسلامية)، على عملية العلمنة بأشكال مختلفة وأفرزت حركات ووجهات نظر ورؤى متضادة: في أعقاب عملية التقسيم الأوروبية هذه، كان هناك من رأى في اليهودية ديانة فقط، فيما كان هناك ثمة من سعى لتحويل اليهودية إلى قومية فقط. ففي الوقت الذي رأت فيه الأرثوذكسية الحديثة أو المعاصرة، واليهودية الإصلاحية والمحافظة، في اليهودية ديانة، فقد سعت الصهيونية العلمانية لتحويلها (أي الديانة اليهودية)، إلى قومية.[٣]

وقد اعتقد القسم الأول أن اليهودية هي منظومة طقوس ومعتقدات تقتصر على مجال الفرد، وسعى هذا القسم إلى إظهار عدم وجود أي تناقض داخلي بكون الإنسان مثلا "ألمانيا ينتمي إلى دين موسى"، أي ألمانيا في قوميته ويهوديا في ديانته، فيما رفضت الثانية (الصهيونية العلمانية) البعد الديني – العقيدي في اليهودية، ورأت فيها قومية في المقام الأول. والدولة التي سعت الحركة الصهيونية إلى إقامتها كانت أولا وقبل كل شيء علمانية وديمقراطية. ويمكن لليهود في مثل هذه الدولة، إذا ما شاؤوا، أن يكونوا "متدينين"، وإن كان يتعين عليهم أن يطبقوا هذه الإضافة (القديمة والنافلة من ناحية مؤسسي الحركة الصهيونية) في بيتهم الخاص وبين أتباع طائفتهم أو جاليتهم. سيكون هؤلاء "يهودا متدينين" فيما سيكون باقي سكان إسرائيل يهودا عاديين، أي علمانيين من ناحية هؤلاء. وكما أسلفنا فإن التمييز في حد ذاته بين البعد الديني والبعد القومي أو الإثني الكامن في اليهودية يعتبر غريبا على التقاليد اليهودية ذاتها، ويشكل توطده ورسوخه في الفهم الذاتي لليهودي خلال القرنين الأخيرين عملية علمنة دراماتيكية.[٤]

لقد شقت الصهيونية الدينية طريقها من حركة "همزراحي" (الشرقي) بزعامة الحاخام رايس (١٨٣٨ – ١٩١٥)، ولكن هذه المسألة ذاتها لا تنطوي على فهم يتحدى التقسيم العصري لليهودية إلى دين وقومية. سعت حركة "همزراحي" الى إقامة مأوى آمن لليهود في إسرائيل، بمعنى دولة يكون في وسع اليهود البقاء والعيش فيها على طريقتهم بسلام. وفي هذه النقطة ليس هنالك فرق مبدئي بين أتباع حركة "همزراحي" وبين الأرثوذكسية الحديثة في الولايات المتحدة الأميركية. ومن هنا فقد تحالف هؤلاء مع الصهيونية العلمانية بزعامة هرتسل وأقاموا في البلاد مستوطنات دينية (ومن ضمنها كيبوتسات) كانت مشابهة جدا لتلك التي أقامتها حركة العمل.

وتقدم لنا نظرية الحاخام كوك فهما مختلفا بصورة جوهرية، ذلك لأن الحاخام كوك سعى الى التغلب على الفجوة بين الدين والقومية عن طريق إزالتها بواسطة مراسم وطقوس مسيانية. وقد رأى الحاخام كوك في مخيلته "دولة هي في جوهرها نموذجية"،[٥] تعمل ككائن حي يعبر عن إرادة وسلطة الله على الأرض. وفي مثل هذه الدولة لا مكان لليهود غير الملتزمين بهذا التحالف ذلك لأن هذا الأخير أعتبر كأساس لوجود الدولة وليس أقل من ذلك، وكبرنامج سياسي لها. وقد وجه الحاخام كوك رسالة إلى ابنه في خضم محاولاته (الفاشلة) لإقامة حركة سياسية دينية كتب فيها قائلا: "يمكن لنا في التجلي الأسمى للعبادة الحرة أن ننير كل السبل النظامية".[٦]

واذا كان الحاخام تسفي ناريا، رئيس المدارس الدينيّة (يشيفوت) التابعة لبني عكيفا في ذلك الوقت، قد أجاز لنفسه، في العام ١٩٥٢، أن يتساءل: "كيف يمكن الجسر على ذلك التناقض النفسي الناجم عن الولاء المزدوج، الولاء لتوراة إسرائيل والولاء لدولة اسرائيل"، فقد جاء "أبناء الجمرة" وأكدوا: أن الولاء هو أمر مزدوج بصورة مؤقتة فقط، لأن الرؤية "الكوكيّة" والدفاع المسياني (الخلاصي) سيجعلان من دولة إسرائيل التجسيد الكامل للتوراة اليهودية.

وقد كانت نية الحاخام كوك إلغاء أي ذكر لمجال الحياة الدنيوية، كما شخص بصورة دقيقة عملية المفاضلة لمسيرة العلمنة، وانتقد بشدة اليهودية الأرثوذكسية في عصره والتي انشغلت حسب تعبيره في "المثل الدينية"، أي أنها رأت اليهودية كديانة تقتصر على مجال معين، إذ كانت اليهودية في نظره "مبدأ إلهياً" يتضمن الوجود أو الكون بأكمله بصورة شمولية، فرأت في الشعب اليهودي جسما عضويا موحداً ومنسجماً يعمل بطريقة هوليستية كتجسيد لإرادة الله المطلقة. وقد كان تقسيم اليهودية إلى دين من جهة وإلى قومية من جهة أخرى هو الشيء الذي رفضه جملة وتفصيلا[٧] واعتبر أن الدولة بأكملها هي وقف لله.

كان ثمة الحاخام كوك أتباع وتلاميذ، غير أن عددهم كان قليلا جدا. وعلى قدر الادعاء الذي طرحه – على سبيل المثال في تسمية المدرسة الدينية التي أسسها في القدس "اليشيفاه المركزية العالمية"[٨] – فقد تقلص أيضا تأثيره الفعلي في سني حياته. غير أن نظريته انتظرت كقنبلة هادئة أو صامتة آخذة في النضوج، إلى أن تنفجر في اللحظة المناسبة. إن من غير الممكن تصور التبلور الداخلي، والثقة بالنفس والانطلاق للعمل السياسي المسياني للجمهور الصهيوني الديني في سبعينيات القرن الماضي دون مثول شخصية الحاخام كوك. لقد كان يشكل بالنسبة لهم شخصية توتمية (توتم –بلغة الهنود الحمر– هو إله القبيلة البدائية)، وأب أول تحتل نظريته مكانة القانون المقدس، يجب نبشها والتعمق فيها كثيرا، ذلك لأنها تحتوي على كل شيء. وقد وجد فيها أتباع "غوش إيمونيم" في شكل أساسي، من خلال تفسيرات نجل الحاخام أبراهام كوك، الحاخام تسفي يهودا كوك، نظرية متسقة ومتكاملة، تحتوي على تعليمات بشأن طريق تجسيد الرؤية الإلهية على الأرض: إلغاء ودحر العلمانية وإحلال وجلب الخلاص التام والناجز.

لم يحظَ الحاخام كوك برؤية دولة إسرائيل في سيادتها، وفيما لو رأى لكان من الصعب معرفة ماهية تفكيره عن ذلك. في العقود الأولى لقيامها لم تشعر دولة إسرائيل بنفسها ملتزمة بأي تحالف مع أي إله كان، كما أنها لم تؤسس نظامها، قطعا، على "قدسية متوهّجة". نجل الحاخام كوك هو الذي حدَّث وحتلَن تفسير والده (أي الحاخام كوك الأب) للواقع الإسرائيلي. فقد أدخل مع زمرة من التلاميذ في مدرسته الدينية وجهة نظر ثيولوجية شكلت جوابا على الأزمة الخطيرة التي طرحتها العلمنة أمام التقاليد اليهودية، وفي صورة ملموسة التفسير القومي للصهيونية لليهودية.

وقد استخدمت الإجابة التي بلورها الرؤية الوحدوية "الكوكيّة" كإطار انبثقت عنه ذراع مسيانية حازمة. من هنا فان "الكوكيّة" هي إذن تفسير الحاخام تسفي يهودا كوك لنظرية أبيه، وتحويلها إلى نموذج مسياني خلاصي وكولونيالي يرى في دولة إسرائيل الموسعة لسيادتها، تجسيدا لإرادة الله ولدنو الخلاص.

التطور الفكري والعملي لحركة "غوش إيمونيم"

وفقًا لما كشفه عالم الاجتماع جدعون أران في بحثه الشامل حول "غوش إيمونيم"، فإن الجذور الاجتماعية لحركة "غوش إيمونيم" ممتدة من مجموعة "غحيلت" (الجمرة).[٩] وقد جاء ذلك كردة فعل من جانب أعضاء المجموعة، ومن ضمنهم أعضاء شباب أصبحوا فيما بعد حاخامات مثل تسفانيا دروري، زلمان ميلاميد، حاييم دروكمان، موشيه لفينغر، واليعازار فيلدمان، إزاء العزوف المتزايد لشُبان متدينين صهيونيين عن المحافظة على الفروض الدينية. ففي خضم بحثهم عن رد على رياح العلمنة، اتخذ أعضاء الحركة من مدرسة الحاخام كوك، التي كان يديرها وقتئذ نجله، مقرا لهم.

واذا كان الحاخام تسفي ناريا، رئيس المدارس الدينيّة (يشيفوت) التابعة لبني عكيفا في ذلك الوقت، قد أجاز لنفسه، في العام ١٩٥٢،

كما أسلفنا فقد كانت الكوكية، التي لا تعدو كونها التفسير الذي أعطاه الحاخام تسفي يهودا كوك لنظرية أبيه، هي المحرك لـ "غوش إيمونيم". ويقف في مركز الرؤية "الكوكيّة" التطلع نحو الخلاص كتجسيد لإرادة الله على الأرض. وكما صاغ ذلك حنان بورات فإن: "غوش إيمونيم هي التطلع والحنين إلى تجلي الله في يوش "يهودا والسامرة" (الضفة الغربية)"، وكان يقصد بذلك أن الاستيطان في "يهودا والسامرة" هو تجسيد سياسي وتاريخي لإرادة الله الميتافزيقية.

أن يتساءل: "كيف يمكن الجسر على ذلك التناقض النفسي الناجم عن الولاء المزدوج، الولاء لتوراة إسرائيل والولاء لدولة اسرائيل"،[١٠] فقد جاء "أبناء الجمرة" وأكدوا: أن الولاء هو أمر مزدوج بصورة مؤقتة فقط، لأن الرؤية "الكوكيّة" والدفاع المسياني (الخلاصي) سيجعلان من دولة إسرائيل التجسيد الكامل للتوراة اليهودية.

لقد طور أعضاء "الجمرة"، المتعصبون للفروض والتعاليم الدينية أكثر من نظرائهم في التيار الصهيوني الديني، منظومة أو نموذجا أخلاقيا جديدا في المعهد الديني، استفاد من نظرية الحاخام كوك. وهكذا أخذت الرؤية "الكوكية" تتبلور أكثر فأكثر. غير أن وقتا طويلا مضى قبل أن يتمخض ذلك النموذج عن ولادة جسم اجتماعي في صورة حركة "غوش إيمونيم".

وقد جرت الخطوة الأولى نحو تحول النموذج ذاته إلى برنامج سياسي في فترة حرب "الأيام الستة" (حزيران ١٩٦٧). ويمكن القول، من ناحية عملية، أن لحظة "غوش إيمونيم" بدأت قبل حرب ١٩٦٧ بنحو ثلاثة أسابيع. ففي احتفال خصص لمناسبة "يوم الاستقلال" التاسع عشر لدولة اسرائيل، أطلق الحاخام تسفي يهودا كوك فجأة هتافات بصوت عالٍ مشوب بالعاطفة والدموع، قائلا:

"أين حفرون شيلانو (خليلنا – مدينة الخليل)؟! هل نسيناها؟! أين شخيم (نابلس) شيلانو؟! هل نسيناها؟! ويريحو (أريحا) شيلانو؟! هل نسيناها؟! أين شرق أردننا؟! أين كل حبة تراب، كل جزء وجزء، كل الأطراف الأربع لبلد الله؟ هل في وسعنا أن نتنازل عن أي ميلمتر منها؟!"[١١]

كان لأقواله هذه تأثير كبير على تلاميذه، الذين كانوا ما زالوا قلائل وقتئذ ولا يمتلكون نفوذا ملموسا في أوساط الجمهور الصهيوني– الديني. وبعد مرور ثلاثة أسابيع على ذلك، وحينما أصبحت دولة إسرائيل تسيطر فعليا على مدن الخليل ونابلس وأريحا، اكتسبت أقواله تلك قيمة دينية أكبر، واعتبر ما تحقق منها على أنه تجسيد لنبوءة حقيقية، فيما صارت الكلمات التي لم تتحول إلى واقع – احتلال الضفة الشرقية لنهر الأردن – بمنزلة أمر ملزم ووعد للمستقبل.

ويعبر مطلب الحاخام تسفي يهودا عن الرؤية المسيانية "الكوكيّة"، التي أخذت في النصف الثاني من سبعينيات القرن الماضي تحتل بيوت أجزاء واسعة ومتزايدة من الجمهور الصهيوني الديني. بعد حرب "يوم الغفران" (تشرين الأول ١٩٧٣) بالذات حدث الاختراق، المادي والنظري، باتجاه "الخط الأخضر" (أي الأراضي المحتلة عام ١٩٦٧)، ذلك لأن الأمر لم يتطلب فقط إمكانية عملية، وإنما خيبة أمل وأزمة ثقة في كل ما يتعلق بقيادة الدولة من جانب الصهيونية العلمانية، لا سيما وأن حرب "يوم الغفران"، التي اعتبرت في إسرائيل إخفاقا وفشلا، قوّضت الثقة العمياء بزعامة حركة "العمل". غير أن تلامذة الحاخام الحاخام تسفي يهودا لم يمتلكوا ناصية الوعي والنضوج النظري الذي يؤهلهم للمطالبة بأخذ زمام القيادة، سوى بعدما تمكنوا من إزالة جزعهم وخوفهم من رجالات حزب "مباي". عندئذ فقط ولدت "غوش إيمونيم" وانطلق مشروع الاستيطان وبناء المستوطنات في "يهودا والسامرة" (الضفة الغربية).

أقيمت حركة "غوش إيمونيم" في شباط عام ١٩٧٤، وذلك بعد أربعة أشهر من حرب "يوم الغفران"، فقد اجتمع في كيبوتس "كفار عصيون" خريجو مدرسة "مركاز هراف"، ومن بينهم موشيه لفينغر، حاييم لفينغر، يوئل بن نون وحنان بورات، وذلك لبحث المطالب تمهيدا لإجراء المفاوضات الائتلافية التي جرت بعد الانتخابات للكنيست الإسرائيلي الثامن.[١٢] في ذلك الاجتماع ولدت الفكرة التي تحدثت عن "حركة نهوض واسعة في صفوف شعب اسرائيل، من أجل تجسيد الرؤيا الصهيونية بأكملها }... والتي { تنادي في جوهرها بالخلاص التام والكامل للشعب اليهودي والعالم بأسره" حسب تعبير حنان بورات.[١٣]

غوش ايمونيم: البداية من سبسطية.

كما أسلفنا فقد كانت الكوكية، التي لا تعدو كونها التفسير الذي أعطاه الحاخام تسفي يهودا كوك لنظرية أبيه، هي المحرك لـ "غوش إيمونيم". ويقف في مركز الرؤية "الكوكيّة" التطلع نحو الخلاص كتجسيد لإرادة الله على الأرض. وكما صاغ ذلك حنان بورات فإن: "غوش إيمونيم هي التطلع والحنين إلى تجلي الله في يوش "يهودا والسامرة" (الضفة الغربية)"،[١٤] وكان يقصد بذلك أن الاستيطان في "يهودا والسامرة" هو تجسيد سياسي وتاريخي لإرادة الله الميتافزيقية. ومن الناحية الثيولوجية فإن خلاصة "الكوكيّة" تتمثل في الانتقال من الصهيونية الدينية إلى الدين الصهيوني،[١٥] أي رؤية القومية اليهودية كدين، والدين اليهودي كقومية. وإذا كان معنى الصهيونية هو تحويل اليهودية إلى أيديولوجيا، فقد أتاح الهمس الكوكي استدعاء الله – الذي رفضه الصهيونيون العلمانيون – من جديد، فتحولت الأيديولوجيا إلى ثيولوجيا.

لقد عنى ذلك من ناحية عملية، كما هو معروف، إقامة مملكة يهودية – دينية على كامل "أرض إسرائيل". وتسعى "الكوكيّة" إلى الجمع بين كيانين مقدسين: أرض إسرائيل ودولة إسرائيل. وتنبثق قدسية البلاد ("أرض إسرائيل") بطبيعة الحال من الكتاب المقدس (التوراة) ومن التقاليد اليهودية. وتستشف قدسية الدولة من نظرية الحاخام كوك القائلة إن: العلمانيين مؤسسي الدولة يعملون برسم رسالة إلهية، ومن هنا فإن الدولة التي يقيمونها هي شأن إلهي. كذلك فإن الدولة هي أيضا تجسيد لإرادة الشعب، وهو مبدأ "كوكيّ" مهم في حد ذاته. وإرادة الشعب "كنيست إسرائيل"، هي تجسيد مكمل لإرادة الله، بكون الشعب يقيم حلفا مع الله وينصاع لأوامره.

وتسيطر دولة إسرائيل عمليا على "أرض إسرائيل"، وتطبق إرادة اليهود عليها. من هنا فان للسيادة إذن بالنسبة للـ"كوكية" أهمية خاصة. وكما أكد الحاخام تسفي يهودا فإن "الخلاص ما هو إلا سيادة: حكومة للشعب في كامل حيز بلده".[١٦] هكذا، اتحدت قدسية دولة إسرائيل وقدسية أرض إسرائيل على أمثل وجه في حرب "الأيام الستة". وكما كتب في ذلك الوقت ناتان ألترمان "إن أهمية هذا الانتصار تكمن في أنه محى عمليا الفرق بين دولة إسرائيل وبين أرض إسرائيل".[١٧] وقد اعتبر التوسع الإقليمي من وجهة نظر رجالات "غوش إيمونيم" تجسيدا لإرادة الله، ومؤشرًا لاقتراب الخلاص.

إعادة القنيطرة إلى سورية بعد بضعة أشهر (من حرب تشرين الأول ١٩٧٣)، انطوت على إشارة أولية للمعضلة التي واجهتها "الكوكيّة" في مواجهة عدم استعداد الواقع لمواءمة نفسه مع خطة الخلاص. ومن هنا فإن أي انسحابات أخرى من المناطق المحتلة كان من شأنها أن تنزل ضربات قاسمة بالرؤية الإيمانية "الكوكيّة"، وأن تكون من الأسباب المؤدية إلى انهيارها، فيما بعد.

كان ذلك التوسع الإقليمي ذاته بالنسبة لرجالات "غوش إيمونيم" بمنزلة عبادة دينية. وكما كتب جدعون أران فإن الحديث يدور على: "تصوف للقومية الإسرائيلية، يتلوه إضفاء صفة الطقوسيّة على الحزم السياسي، وهما أمران يتيحان معا جلب الصهيونية إلى نهاية استنتاجاتها، وفي الوقت ذاته أيضا تجريدها من بعدها العملي وتحريرها من مسؤوليتها، وهما أساس ثوريتها التاريخية".[١٨] هكذا تتحول عملية الاستيطان إلى طقوس، فيما يتيح الإيمان المسياني النظر إلى عملية الاستيطان على الأرض والسيادة الإسرائيلية عليها بمثابة تدوير أو تحريك للدواليب السماوية لماكينة الخلاص، وهي عملية يتحد فيها الدين مع القومية.

وفقا للخط المركزي لـ"كوكيّة" فإن عملية الخلاص تشتمل أيضا على اقتراب اليهود العلمانيين المتزايد من عالم الفروض الإلهية، إذ إن ذلك يمثل "الجمعية" (التوليفة) التي كان قد تكهن بها الحاخام يهودا كوك.

من جهته أضاف الحاخام تسفي يهودا جازما بأن هذه العملية برمتها هي عملية أحادية الاتجاه وقدرية أو حتمية، لا رجوع فيها. وقد أكد الحاخام تسفي يهودا قائلا: "إن دولة إسرائيل هي شأن إلهي }... {ليس فقط لن تكون هناك إنسحابات من كيلومترات في أرض إسرائيل، لا قدر الله، بل على العكس، سنضيف احتلالات وفتوحات }...{ في كياننا الإلهي الذي يمتد ليضم ويشمل أطراف عالم وعوالم، وليس هناك أي أساس أو واقع لأي انسحاب".[١٩]

المستوطنة الأولى التي أقيمت من قبل حركة "غوش إيمونيم" كانت مستوطنة "كيشت" في مرتفعات الجولان وذلك في شهر أيار عام ١٩٧٤. [٢٠] وكان الهدف من إقامة هذه المستوطنة ضمان عدم انسحاب إسرائيل من هضبة الجولان ولا حتى من مدينة القنيطرة السورية المهجورة، وهو ما وجد تعبيرا له في اسم المستوطنة ذاتها الذي تكون من الأحرف الأولى لكلمات "القنيطرة لنا إلى الأبد".

إعادة القنيطرة إلى سورية بعد بضعة أشهر (من حرب تشرين الأول ١٩٧٣)، انطوت على إشارة أولية للمعضلة التي واجهتها "الكوكيّة" في مواجهة عدم استعداد الواقع لمواءمة نفسه مع خطة الخلاص. ومن هنا فإن أي انسحابات أخرى من المناطق المحتلة كان من شأنها أن تنزل ضربات قاسمة بالرؤية الإيمانية "الكوكيّة"، وأن تكون من الأسباب المؤدية إلى انهيارها، فيما بعد.

بعد إقامة مستوطنة "كيشت" المذكورة، وصلت موجات الاستيطان إلى محطة القطار التركية القديمة قرب قرية سبسطيا (قضاء نابلس)، فقد قام أتباع "غوش إيمونيم" بسبع محاولات متتالية للاستيطان في المكان، فقط كي يقوم الجيش الإسرائيلي بإخلائهم. في المرة الثامنة، التي جرت في كانون الأول عام ١٩٧٥، استغل طلائع المستوطنين الخصومة بين إسحق رابين وشمعون بيريس بغية استمالة الأخير إلى جانبهم، وعزفوا على وتر المناخ الإسرائيلي العام الذي طالب بـ "رد صهيوني ملائم" على قرار الأمم المتحدة الذي أتخذ قبل ذلك ببضعة أسابيع والذي وصفت بموجبه الصهيونية بالعنصرية.[٢١] في هذه المرة لم يقم الجيش الإسرائيلي بطرد المستوطنين من أتباع "غوش إيمونيم".

أقامت "غوش إيمونيم" مستوطنات "ألون موريه" ومن ثمَّ "عوفرا" و "كدوميم". وقد تعهد مناحيم بيغن، الذي أصبح رئيسا لحكومة إسرائيل في أواسط العام ١٩٧٧، قبيل انتخابه ببناء المزيد من المستوطنات قائلا: "سنقيم الكثير من ألوني موريه"، وقد وفا بوعده. غير أن النجاح أفضى بالضرورة إلى عملية مأسسة. ففي العام ١٩٧٩ اقيمت حركة "أمناه" وذلك بغية تنظيم مشروع الاستيطان من ناحية بيروقراطية واقتصادية، وفي العام ١٩٨٠ أقيم مجلس المستوطنات في الضفة الغربية وقطاع غزة وأطلق عليه "مجلس

عندما يتوجه المستوطنون إلى الدولة للمطالبة بميزانيات وبنى تحتية، فإنهم يرون بها (الدولة) مزودة خدمات وليس تجليا لقدسية. هاتان الرؤيتان ليستا متناقضتين بالضرورة، ولكنهما تنتجان وعيا مختلفا. الرؤيا الكوكيّة التي توحد وتجمع بين الدين والقومية هي مثالية بطبيعتها، وتجد صعوبة في استدخال توجه أداتيّ يسعى إلى استخدام، أو استغلال، الدولة وليس العمل معها. وفي هذا السياق فإن الروتين يحل مكان الفعل الحازم، ويعمل الروتين على مأسسة شبكة علاقات يكمن في أساسها التطلع نحو المحافظة وليس نحو الإنطلاق.

يهودا والسامرة – ييشع"، وهو بمثابة هيئة إدارية تضم رؤساء السلطات المحلية في مستوطنات الضفة الغربية وقطاع غزة. هكذا تبلورت حركة "غوش إيمونيم" بصورة رسمية وبيروقراطية، وأخذت تتمأسس أكثر فأكثر، من ناحية عملية، فكفّت عن كونها حركة فكرية تعيش في نهاية عقد ثمانينيات القرن الماضي.

أسباب تفكك "غوش إيمونيم"

أخذت حركة "غوش إيمونيم" بالانحسار والتقلص على امتداد أعوام الثمانينيات، غير أنه من الخطأ رؤية أفول الحركة كشأن بسيط ناجم عن إتجاه "البرجزة". بطبيعة الحال وكأي حركة نهضة روحية، اجتازت حركة "غوش إيمونيم" مرحلة عنفوان الشباب المتحمّس وسارت على السكك المأسسة للحياة، أكثر فأكثر. غير أن انهيار "غوش إيمونيم" كان في المقام الأول بمثابة التفكّك المتصاعد للنموذج الكوكي. وقد جرت هذه العملية في الواقع بموازاة تحول "غوش إيمونيم" الى حركة برجوازية، ولكن ليس لأن "البرجزة" تعني المأسسة، وإنما لأن مغزاها العميق هو العلمنة.

كما أسلفنا، رأت "الكوكيّة" في الصهيونية توليفة قومية دينية تجسد البرنامج المسياني الإلهي. وكما ذكر أعلاه فإن عملية الاستيطان على الأرض تحولت إلى نوع من الطقوس، فيما كان فرض السيادة الإسرائيلية على المزيد من المناطق المحتلة بمثابة عملية دينية ذات مغزى خلاصي. ولكن ما الذي سيحدث حينما لا تتم عملية الاستيطان من جانب مجموعة من المتشددين المسيانيين المتحمسين، وإنما من جانب شركة تجارية؟! وما الذي سيحدث حينما لا ينشد المستوطنون أنفسهم، عملية الاستيطان على الأرض، وإنما يبحثون عن جودة الحياة في بيت فخم مسقوف بالقرميد الأحمر؟! في عقد الثمانينيات، وبالأخص في التسعينيات (وتحديدا في عهد رئيس الوزراء إسحق رابين الذي حسن وطور كثيرا البنى التحتية للمستوطنات في الضفة الغربية) تحول مشروع الاستيطان إلى حجر الرحى للباحثين عن حلول سكنية وعن تحسين نوعيته. وهكذا كف المستوطن، حتى الذي كان في ماضيه مستوطنا أيديولوجيا، عن كونه طلائعيا، وتحول من الناحيتين العملية والجوهرية، إلى مستهلك.

عندما يتوجه المستوطنون إلى الدولة للمطالبة بميزانيات وبنى تحتية، فإنهم يرون بها (الدولة) مزودة خدمات وليس تجليا لقدسية. هاتان الرؤيتان ليستا متناقضتين بالضرورة، ولكنهما تنتجان وعيا مختلفا. الرؤيا الكوكيّة التي توحد وتجمع بين الدين والقومية هي مثالية بطبيعتها، وتجد صعوبة في استدخال توجه أداتيّ يسعى إلى استخدام، أو استغلال، الدولة وليس العمل معها. وفي هذا السياق فإن الروتين يحل مكان الفعل الحازم، ويعمل الروتين على مأسسة شبكة علاقات يكمن في أساسها التطلع نحو المحافظة وليس نحو الإنطلاق. يعتاد المستوطن على الاستهلاك وليس العمل فيما تتلاشى وتتبدد الطقوس الاستيطانية، أي الهجرة والاستيطان على الأرض كعمل أو ممارسة دينية. وهكذا تتآكل الصلة بين الاستيطان القومي وبين منظومة الأخلاق الدينية ويتحول هذان الأمران مجدداً إلى جانبين مختلفين للواقع اليومي.

هنا، إذن، تعود إلى المشهد عملية التفاضل الأولية لعملية العلمنة. فالدين الصهيوني يتحول مجددا ليغدو صهيونية دينية، أي لتوجه يماثل الدولة مع اليهودية القومية والدين مع اليهودية التوراتية. ويؤدي الروتين بدوره إلى تصفية "الكوكيّة" التي تتطلب حجما سياسيا كطقوس تخدم وتقرب عملية الخلاص. من هنا فإن عملية البرجزة "تُعلمِن" "الكوكيّة" وتترجمها الى صهيونية دينية معيارية. هذه العملية (البرجزة) تؤشر إلى نهاية "غوش إيمونيم" كقوة دينية سياسية فاعلة.

وينبغي أن يضاف لهذه العملية الأولية عاملان ساهما في حفظها وتسريع وتيرتها. الأول، عدم استعداد اليهود العلمانيين للتوبة (العودة إلى الدين اليهودي). وكانت حركة "أرض إسرائيل الكاملة" التي أقيمت بعد حرب حزيران ٦٧، قد عرضت قائمة لافتة جدا من الإسرائيليين العلمانيين الذين تابوا إلى الدين (ضمت حاييم غوري، ناتان الترمان، أهارون أمير، موشيه شمير وغيرهم كثيرون. وقد رأى رجالات "غوش إيمونيم" في ذلك دليلا على تقدم رؤيا الحاخام كوك في هذا الخصوص أيضا: عقب احتلال بقية أجزاء "الوطن" (أي الضفة الغربية وقطاع غزة) استيقظت في الظاهر في نفوس العلمانيين "النقطة اليهودية"، وبدا كأنهم في طريق العودة إلى التوراة، فيما غدت "البلاد" هي عامل اللُحمة والوحدة بين الشعب العاق وبين التوراة المنسية. ولكن عندما خاب هذا التوقع، أضحى من الصعب أكثر التمسك برؤية الحاخام يهودا تسفي كوك. بالإضافة إلى ذلك، فقد أكد استمرار سيطرة العلمانيين في مؤسسات الدولة على علمانية هذه الأخيرة. فالدولة، كما غالبية الشعب فيها، لم تحافظ على مبادئ الدين، بل وحدثت تراجعات مختلفة في مجالات اعتبرت بمنزلة "ستاتوس كوو" في شؤون الدين والدولة.٢٢ وقد قضت المحكمة الإسرائيلية العليا في غير مرة في صالح حقوق الفرد على حساب مبادئ الدين، كما انحازت المؤسسة السياسية مرارا خلافا للرؤية "الكوكيّة".

يطرح هذا الموضوع الأخير العامل المعجل الثاني في انهيار "الكوكيّة". فمن جهة لم يعد الشعب الإسرائيلي إلى الدين، ومن جهة ثانية قلّصت دولة إسرائيل مرارا وتكرارا، منذ ثمانينيات القرن الماضي، سيادتها على مناطق "أرض إسرائيل". فالانسحاب من سيناء، بعد معاهدة السلام التي وقعت بين إسرائيل ومصر، كان أول ضربة قاسمة للثيولوجيا "الكوكيّة"، تلته الانسحابات من مدن الضفة الغربية بموجب اتفاقيات اوسلو، والانسحاب من جنوب لبنان (الذي يعتبر أيضا، حسب حاخامات مختلفين، جزءاً من أرض الميعاد)، وأخيرا كان الانسحاب من قطاع غزة وخراب وتفكيك مستوطنات "غوش قطيف". كان يتعين على المسيانية "الكوكيّة"، التي لم تقبل بإمكانية الانسحاب، ان تواجه عمليات دحض متكررة للنموذج الذي تبنته. وقد أدت هذه إلى تقويضها وساهمت في انهيارها.

تتضافر هذه العوامل الثلاثة لتحول الانسحاب من "الكوكيّة" إلى رؤية دينية قومية بسيطة، من طراز حزب "همزراحي"، وإلى عملية حتمية. بدورها نقلت عملية البرجزة النظرة إلى الدولة من "الطقوسي" إلى الواقعي ومن المثالي إلى البراغماتي. وتحولت الدولة إلى هيئة توفر الاحتياجات وليس إلى منصة أو مسطبة لفعل ديني. ويكون الدولة علمانية، فقد ازداد التحفظ إزاءها بل وبلغ حد

حنان بورات ورابين في كفار عتصيون عام ٧٦.

الاغتراب. تتحول الدولة في هذا السياق إلى عدو فيما تغدو الحكومة "حكومة ظالمة"،[٢٣] حتى أن الجيش الإسرائيلي لم يعد بدوره مقدسا مثلما كان.[٢٤] وحين تبادر الدولة أيضا لأعمال ونشاطات تتناقض بشكل سافر مع الرؤية "الكوكيّة"، تغدو القطيعة بينها وبين هذه الرؤية جلية لا لبس فيها.

العودة إلى الصهيونية الدينية، والانتقال إلى القومية والمركزية الإثنية

تراجعت الصهيونية الدينية في إسرائيل إذن إلى موقف الأرثوذكسية العصرية. فقد أعادت تقسيم الواقع من جديد إلى مجالين علماني وديني، إذ اعتبرت الدولة شأنا علمانيا (ينبغي الدفاع عنه وحمايته بطبيعة الحال، وإذا ما أمكن العمل على تقريبه قدر المستطاع إلى القيم السوية)، فيما دخل كل ما يحدث لدى طوائفها ومجموعاتها (في جهاز التعليم الديني وفي حركات الشبيبة والكنس) تحت أجنحة الخالق. صحيح أنه ليس كما هو الحال في ألمانيا أو الولايات المتحدة الأميركية، فإن هذه الدولة هي دولة الشعب اليهودي، ولكنها كتلك الدولتين هي أيضا دولة قومية عصرية، وتستند بهذا المعنى إلى المنطق العلماني الذي يعين حدود الدين في بقعة معينة، ويقصيه عن السيطرة في مضماري القوة والمعرفة.

غير أن ذلك لم يشكل نهاية للموجات الارتدادية الناجمة عن تفكك وانهيار "غوش إيمونيم"، فقد تعاظم التوجّه الذي بدأ مع انهيار الرؤية "الكوكيّة" ذاتها. ويلاحظ في العقد الأخير أن الصهيونية الدينية

والحزب القومي – الديني لا يعدو كونه انعكاسا لصورة ناخبيه، ففي بحث شامل أجراه في العام ٢٠١٤ "المعهد الإسرائيلي للديمقراطية" تبين أن "إحدى السمات المُجمع عليها للتدين القومي هي الصبغة اليمينية السياسية والأمنية"، حتى أكثر من التشدد في التزام الشرائع الدينية. ويتضح أيضا من بحث بوريا جال غيتس حول المرتدين عن نمط الحياة المتدين من صفوف الصهيونية الدينية، أن الهوية القومية تعتبر أكثر أهمية وقيمة من الهوية الدينية.

وصلت إلى مرحلة جديدة في ابتعادها عن القيم والمثل "الكوكيّة"، وهي مرحلة تؤشر إلى تأكيد زائد على التمييز بين الدين والقومية، بمعنى تعظيم العلمنة. هذه السيرورات مرتبطة باتساع حيز البعد القومي في توليفة الهوية لدى الصهيونية الدينية، أي جعل العنصر الإثني والموقف السياسي اليميني مركزيين أكثر بكثير مما كان عليه الأمر فيما مضى.

ابتداء من تسعينيات القرن الماضي تحول "المفدال" بشكل معلن إلى حزب يميني. أُسدل الستار على "الحلف التاريخي مع حزب "مباي" في العام ١٩٧٧، غير أن وجوده فيما قبل ذلك يدل على طابع الحزب الديني – القومي في ذلك الوقت. وقد استبدل زعماء براغماتيين ومعتدلين من ناحية سياسية، مثل يوسف بورغ وزيرح فرهفتغ، بزعماء معروفين بيمينيتهم مثل حنان بورات، إسحق ليفي، وأخيرا نفتالي بينيت. ويقود حزب "البيت اليهودي" الحالي هذه العملية إلى ذروتها، إذ يمكن من خلال تركيبته أن نستشف ببساطة بأن الموقف اليميني أهم من الموقف الديني – التوراتي: فقد شرع الحزب باستيعاب علمانيين يمينيين في صفوفه، في حين ليس ثمّة مكان فيه لمتدينين ملتزمين ذوي توجّه يساري.

والحزب القومي – الديني لا يعدو كونه انعكاسا لصورة ناخبيه، ففي بحث شامل أجراه في العام ٢٠١٤ "المعهد الإسرائيلي للديمقراطية" تبين أن "إحدى السمات المُجمع عليها للتدين القومي هي الصبغة اليمينية السياسية والأمنية"، حتى أكثر من التشدد في التزام الشرائع الدينية.٢٥. ويتضح أيضا من بحث بوريا جال غيتس حول المرتدين عن نمط الحياة المتدين من صفوف الصهيونية الدينية، أن الهوية القومية تعتبر أكثر أهمية وقيمة من الهوية الدينية. وكما يقول أحد الذين أجريت معهم مقابلات في نطاق الكتاب (البحث) ذاته: "حتى بعد أن توقفت عن كوني متدينا، لدي شعور بأن الآباء والطائفة سوف يتضررون أكثر إذا ما تحول المرء إلى شخص يساري، لأنه يُنظر إلى ذلك على أنه خيانة"[٢٦]. والخيانة، بصورة مفهومة، هي خروج ضد مجموعة الانتماء فيما تجسد هذه المجموعة السمات الرئيسية لهويتنا. وحين تتحدد مجموعة الانتماء بناء على الموقف السياسي أكثر مما تتحدد بناء على الحرص على الفروض والتقاليد الدينية، تتضح أيضا الأوزان النسبية لهذه العناصر في الهوية الخاصة.

يدور الحديث إذن عن اتجاه العلمنة المتصاعد للصهيونية الدينية. فالرجل المعتمر للقلنسوة (الكيباه) المطرزة، يرى نفسه في المقام الأول كابن للشعب اليهودي وكمدافع عن دولة إسرائيل. صحيح أنه فيما عدا ذلك محافظ على الفروض الدينية أيضا، ولكن ذلك هو، ببساطة، "دينه"، شيء ما يضيفه إلى المكون القومي والذي يعبر عن علاقته الشخصية مع الله. هويته الأساسية هي يهودي – إثني، وإسرائيلي – وطني. ويبدو أن الفخر القوميّ الذي ميّز روح "الكوكيّة" باقٍ ولكن دون ترجمة هذه القومية إلى لغة ثيولوجية. ولإسباب ذُكرت أعلاه فإنه لم يعد من الممكن الاقتناع ببساطة بأن القومية الإسرائيلية هي التجلي المقدس لإرادة الله في العالم، ولكن ذلك لا يعني بالنسبة لمعظم الصهيونيين المتدينين ما يحول دون الاستمرار في تقديسها. وكما أسلفنا فإن نفتالي بينيت يمثل تعبيرا جليا لهذا الاتجاه، بكونه أول زعيم لحزب المفدال غير ضليع في الشريعة الدينية اليهودية. إن التقسيم أو التمييز بين الدين والقومية لا يشكل بالنسبة لـ "بينيت" أمرا بدهيا وحسب، فهو، أي بينيت، إسرائيلي وطني أكثر بكثير مما هو يهودي متدين.

بطبيعة الحال ما زال هناك صهيونيون متدينون يؤمنون بحلول الخلاص وبالمستوطنات كمشروع مركزي يعجّله، غير

أنه جرى إقصاء هؤلاء إلى الهامش وهم يقبعون اليوم في وضع مشابه لذاك الذي كانوا فيه قبل حرب "الأيام الستة". ثمة أيضا صهيونيون متدينون ما زالت الهوية الدينية قوية جدا لديهم، وتتفوق على هويتهم القومية. هؤلاء هم الـ "حردليم" (الحريديم – الوطنيين)، وهي مجموعة تبلورت في موازاة انهيار "الكوكيّة". وما زالت هذه المجموعات تتمسك بصيغ مختلفة لـ "الكوكيّة"، غير أنها تمثل أقلية ضئيلة في صفوف الصهيونية الدينية. وتشكل القومية الدينية العصرية أو الحديثة والمحافظة على الفروض الدينية بؤرتين منفصلتين ومتميزتين للهوية، وكما أسلفنا فقد أخذت البؤرة الأولى تحتل الصدارة بشكل مضطرد.

وعليه، فقد نهضت من بين ركام "غوش إيمونيم" صهيونية دينية أقل تمسكا بالشريعة الدينية اليهودية (التوراة)، وأكثر قومية. إنها صهيونية دينية تخلو من الحماس المسياني، وذات هوية يهودية ضعيفة، ترتكز في جوهرها على البعد الإثني – القومي. ولعل من المفيد في هذا السياق اقتباس البروفسور يشعياهو ليفوفيتش، المفكر المبجل الملتزم والمحافظ على الفروض الدينية اليهودية، الذي اشتهر بتنبؤه حين قال: "عندما ستتبدد الفقاعة المسيانية للحاخامات كوك ولفينغر وبورات ونظرائهم، ويتضح بأن هالة الملك المسيح لن تتجسد {...} سيكتشف أيضا رجالات وأتباع (غوش) إيمونيم بأنه لم تعد لهم جذور في هذه اليهودية {...} بل ومن الممكن – نتيجة لتوقهم وتحمسهم للخلاص المسياني – أن يبحثوا لأنفسهم عن ملاذ تحت أجنحة ذاك المسيح".[٢٧]

ويتنبأ ليفوفيتش هنا بأن انتهاء وزوال مسيانية "غوش إيمونيم" سيدفع أتباعها، الذين يجهدون بحثا عن مسيح، إلى التنصر. ويمكن القول بأن تنبؤ ليفوفيتش، على الرغم من أنه لم يكن في منتهى الدقة، ينطوي أيضا على قدر كبير من الصواب والحقيقة: صحيح أن الصهيونية الدينية لم تتنصر عقب إخفاق "الكوكية"، غير أن أبناءها أخذوا يستبدلون الهوية الدينية بهوية أخرى.

* * *

(ترجمه عن العبرية: سعيد عياش)

الهوامش

١ استخدم هنا كنية "كوكية " نقلاً عن غدعون أران، واستند على وصفه لهذه الرؤية في كتابة "الكوكية" جذور غوش ايمونيم. ثقافة المستوطنين، ليف لوجيا صهيونية مسيانية في عصرنا" إصدار كرمل ،العكر س ٢٠١٣.

٢ الحاخام أبرهام إسحق هكوهن كوك ،ثمانية مجلدات – بوزنر وأبناؤه ،القدس.

٣ هذه الخطوات أضيئت جيداً في كتاب لليئورا بتنيسكي.

٤ تقدم الحريدية رداً إضافياً ومختلفاً للعلمنة. وكما تبين بتنيتسكي بوضوح في كتابها، فإن الحريدية هي المعارضة لتحويل اليهودية سواء الى قومية أو إلى دين ،أي للمنطق الأساسي للمفاضلة الحديثة . فالحريدي كنموذج ليس يهودياً متديناً أو يهودياً وطنياً، كما أنه ليس دمجاً لكليهما.

٥ هذا اقتباس شهير لحاخام كوك الذي يصف الدولة اليهودية المنتظر قيامها،وقد نشر في كتاب الحاخام كوك "أوروت "، مؤسسة الحاخام ككوك،القدس ١٩٨٩ (١٩٢١).

٦ الحاخام كوك "رسائل الحاخام أبرهام إسحق هكوهن كوك "مؤسسة الحاخام كوك، القدس.

٧ "إنه لخطأ جسيم يرتكبه أولئك الذين لا يشعرون بالوحدة الفطرية القائمة في اسرائيل، وينشدون في خيالهم مقارنة هذا الشأن الالهي، المخصوص في طابع الاسرائيلي، مع شأن أي جوهر لشعب آخر من شعوب الارض، أو لغة أخرى من لغاته، ومن هنا تأتي الرغبة في تجزئة الموضوعين القومي والديني إلى فصيلتين – قسمين، وقد منيا كلاهما بالكذب، ذلك لأن مسائل التفكير كافتها، والعاطفة والمثالية، التي نجدها في الأمة الاسرائيلية، تشكل وحدة واحدة لا تقبل القسمة أو التجزئة "(الحاخام ابراهام.ي.هـ.كوك "أوروت ".)

٨ تعرف المدرسة الدينية حالياً بشكل رئيسي بتسمية "يشيفات مركاز هراف".

٩ غدعون أران في كتابه :جذور غوش ايمونيم ،ثقافة المستوطنين،شيولوجيا صهيونية. مسيانية في عصرنا – كرمل ،القدس ٢٠١٣.

١٠ مقتبس ،المصدر السابق ص ٨٧.

١١ تمت طباعة ملصق في كتاب "أحاديث الحاخام تسفي يهودا عن أرض اسرائيل"، شلومو أفينر ،مكتبة حفاة ،القدس ص ٢٥٩..

١٢ يائير شيلغ "في خضم الحركة " – (مكور ريشون ٢٠١٤/١/١٧)ص٢٠–٢٦.

١٣ مقتبس ،المصدر السابق ص ٢٢.

١٤ أران، "الكوكية " ص٣٧٦

١٥ المصدر السابق ١٠٧

١٦ مقتبس، المصدر السابق ص١٩١.

١٧ ناتان الترمان "في مواجهة واقع لا نظير له" معاريف ١٩٦٧/٦/١٦.

١٨ أران "الكوكية " ص١٧٧.

١٩ مقتبس لدى أبيعازا رفيتسكي "النهاية المكشوفة ودولة اليهود –المسيانية، الصهيونية والراديكالية الدينية في اسرائيل " عام عوفيد تل أبيب ١٩٩٧ ص١٨٣.

٢٠ أقيمت مستوطنات يهودية شرقي "الخط الأخضر . قبل ذلك،ولكن فقط في منطقة "غوش عتصيون " التي قامت فيها مستوطنات قبل قيام الدولة ،واعتبرت العودة إليها شرعية ومطلوبة من جانب الحكومة الاسرائيلية بعد إعادة احتلال المنطقة في حرب حزيران ١٩٦٧.

٢١ شيلغ "في خصم الحركة".

٢٢ في الثمانينيات على سبيل المثال،أخذت المزيد من دور السينما تفتح أبوابها أيام السبت، وفي التسعينيات فتحت أيفا مراكز بشوق (على الرغم من أن قوانين الدولة تحظر ذلك).

٢٣ وفق ما تدعى السلطة في صلاة الوقوف في رأس السنة العبرية و"يوم الغفران".

٢٤ جدير بالذكر أن رئيس حكومة اسرائيل كان يعتبر من وجهة نظر الحاخام تشي .ي.كوك. "ملاك الله"، وكما اعتبر أن أي قطعة سلاح في الجيش الاسرائيلي "مقدسة"ودرجة "نحو الخلاص "، أنظروا أيضاً أران "الكوكية".

٢٥ تمار هرمان، غلعاد باري، إيلاه هلر، حنان كوهن ،يوفال ليبل،حنان موزيس، كلمات نعريمان "متدينون؟ قوميون؟ المعسكر الديني – الوطني في اسرائيل ٢٠١٤/١ المعهد الاسرائيلي للدمقراطية – القدس ٢٠١٥،ص ٢٢٧–٢٢٩.

٢٦ بوريا غال غيتس "المتدينون الوطنيون الاسرائيليون" تل أبيب ٢٠١١ص ١٢٤.

٢٧ يشعياهو ليفعر فنيتش " لا إيمان،تاريخ، وقيم: مقالات ومحاضرات"– أكدمون القدس ،٢٠٠٢ ص ٢١٩.